

ولا يجدينا هنا كثيرا أن نبحت عن مقابل مجازي لصاحب عرفة الذي نصحه بالكتابة وأمده بأسرارها ، فسواء كان هو الوعي التاريخي والفلسفي بالوجود كما قد يتراءى لبعض القراء ، أو كان هو فن الرواية الذي يخترق تجليات التعدد المتكاثر ليصل إلى الوحدة الشاملة ويضع نسقا تنتظم فيه الحوادث طبقا لرؤية خاصة ويحاول الوصول إلى قلب الكون والإنصات إلى إيقاعه الشعري العميق كما قد يبدو للبعض الآخر ، فإن الراوى قد ابتعد منذ البداية عن إعلان الولاء لأحد الأحياء عندما جعل صاحبه من أتباع عرفة على وجه التحديد ، وإذا كان هذا هو منظور الراوى فإنه يفرض بالضرورة على القارىء اتخاذ موقف مقابل ومعاقل له ، يبرأ من التحيز حتى يكون قادرا على استشراف الأفق الذى يمتد إليه بصره على أن هذا الراوى لا يتميز بالتواضع ، ولا يظهر الرضا عن نفسه عندما يقول : " كنت أول من اتخذ من الكتابة حرفة فى حارتنا على رغم ماجره ذلك على من تحقير وسخرية . وكانت مهمتى أن أكتب العرائض والشكاوى للمظلومين وأصحاب الحاجات . وعلى كثرة المتظلمين الذين يقصدوننى فإن عملى لم يستطع أن يرفعنى عن المستوى العام للمتسولين فى حارتنا ، إلى ما أطلعنى عليه من أسرار الناس وأحزانهم حتى ضيق صدرى وأشجن قلبى " .

أكان يتمثل الراوى - لا الكاتب - بوعى عندما خط هذه السطور فداحة الرسالة التى شرع فى أدائها عندما أخذ يحكى - ربما لأول مرة فى تاريخ الرواية العالمية - قصة الكون مكثفة مقطرة محولة إلى مجاز فنى كبير ؟ وهل كان يعتبر تجلياته السابقة على هذا المشروع الضخم مجرد شكاوى عابرة وعرائض مدبجة ليس لها من قيمة سوى أنها مكنته من الاطلاع على أسرار المجتمعات وانتهت به إلى الضيق والشجن ؟ وإلى حد يتراءى الكاتب خلف الراوى وهو يتحدث عن عمله الذى لم يرفعه فى نهاية الأمر عن مستوى المتسولين الذين يقتر عليهم فى الحرية والرزق ، إذ لم يزد عن كونه واحدا من هؤلاء الرباب الذين طالما أشجاننا بغنائهم . ومع أن المؤلف - كما رأينا - قد قدم لنا راويا يحكى هذه الأحداث مما قد يوهم للوهلة الأولى أنه سيتخذ المنظور الداخلى فى تمثيله إلا أنه سرعان ما يتضح أن هذا الراوى الذى يختلف عن المؤلف بطبيعة الحال لم يشهد من تجارب الوقائع